المبحث الأول

النظرة المسيحية للثورات العربية
وحركات الإصلاح السياسي

القس د. رياض جرجور*

أحداث المنطقة وتأثيرها على مخاوف المسيحيين

يمكن رؤية أبرز وأهم أحداث المنطقة وتطوراتها التي أثّرت على مخاوف المسيحيين على وجودهم ومستقبلهم في أربعة تطورات أساسية:

أولاً: أوّل هذه التطورات ما أحاط بالوجود المسيحي في فلسطين، حيث أدّت سياسة إسرائيل، وسط صمت إقليمي ودولي، إلى تهجير أغلب المسيحيين وطردهم خارج وطنهم، بمن فيهم مسيحيو القدس، وقد مرِّرت تلك السياسة وسط أقل قدر من الضجيج، وبأساليب استطاعت من خلالها إسرائيل تمرير سياساتها دون أن تترك ردود فعل إقليمية أو دولية معترضة ورافضة لعملية إبعاد الفلسطينيين وتهجيرهم.

ثانياً: كان التطور الثاني ممثلاً بما حدث في لبنان من مجريات حرب أهلية في الفترة ما بين ١٩٧٥-١٩٩٠، والتي لبست في أحد التعبيرات طابع حرب بين المسيحيين والمسلمين، وقد أدّت في نتائجها إلى إعادة صياغة الواقع اللبناني وتوازناته الدينية والطائفية.

ثالثاً: أما التطور الثالث فكان بروز التطرّف والتحريض الديني في عدد من دول المنطقة، وتصاعده بدعم ظاهر وضمني من أجهزة وهيئات رسمية في تلك

* الأمين العام للفريق العربي للحوار الإسلامي – المسيحي/ لبنان.

الدول، وقد أدّى هذا التطوّر إلى بعض الاحتقانات والصدامات في عدد من الدول بين المسلمين والمسيحيين.

رابعاً: والتطور الرابع يمثّله ما حدث في العراق بعد الحرب الأمريكية عليه عام ٢٠٠٣، والتي كان من نتائجها استهداف المسيحيين هناك، وهي عملية غلبت عليها الصبغة الإجرامية، وإن لم تخلُ من أسباب دينية- طائفية، وكان من نتائجها تهجير قسم كبير من مسيحيي العراق وإبعادهم خارج وطنهم في خطوة تكاد تماثل ما أصاب المسيحيين في فلسطين.

إلى هذه الأحداث التي أثّرت على وضع المسيحيين في المنطقة العربية، نصل الآن إلى الإطار السياسي الراهن في منطقتنا، وعنيت به الثورات الشعبية على الأنظمة العربية وما رافقها من أحداث ونتائج، لنتوقف عند ميزات تلك الثورات في مختلف البلدان العربية.

الإطار السياسي الراهن: الثورات العربية

إن نموذج الحراك الشعبي المؤدي إلى تغيير الأنظمة العربية بات معمّماً إلى حد كبير في العالم العربي اليوم.

لقد أنجزت تونس ثمّ مصر هذا التغيير سلميّاً إلى حدٍ كبير حتى باتت ثورة ٢٥ يناير المصرية مثالاً للثورات الشعبية السلمية التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ العربي، وبعد ذلك انتقلت الثورات الشعبية والثورة على النظام إلى بلدان عربية عدة.

الميزات الأساسية للانتفاضات الشعبية الثورية العربية الراهنة

١. هناك لا شك طابع شعبيّ في تلك الثورات لم يعرفه العالم العربي من قبل؛ فالعالم العربي عرف انتفاضات شعبية ضدّ المستعمرين، وما عدا ذلك فقد كانت الانقلابات على الأنظمة القائمة عسكرية في معظمها.

٢. الميّزة الثانية هي الاشتراك البارز للشباب في النزول إلى الشوارع والساحات للمطالبة بتغيير النظام، واستخدام آليات التواصل الاجتماعي مثل (Facebook) و (Twitter) للدعوة إلى التحركات المطلبية.

٣. كل الثورات التي حصلت وما زالت قائمة، فهي ضد الديكتاتورية وأنظمة الردع العنفي والاستئثار بالسلطة لعقود من الزمن لشخص أو عائلة أو طغمة من المستفيدين، تدعمهم القوات العسكرية، وخاصة القوى الأمنية والمخابراتية، وتجميع الثروات الكبيرة بشكل غير شرعي في يد حفنة من الطغمة الحاكمة وأزلامها فيما أصبح صفة لازمة متمثلة بالفساد، الأمر الذي دفع بالبلدان إلى انعدام الحرية، وانعدام الشفافية، وتقهقر الأغلبية الشعبية إلى حالة الفقر والحرمان والبطالة.

٤. وبقدر ما كانت الدوافع التي ذكرناها واضحة وقويّة ومعمّقة، كانت المطالب عامّة، صحيح أن الثوار كانوا يردّدون: حرية وكرامة وديمقراطية وعدالة اجتماعية، ولكن لم تكن هناك أفكار واضحة ومشاريع عملية لنوع النظام الذي يسعون للوصول إليه.

وبعبارة أخرى: إن الشعوب العربية تعرف ما لا تريده، ولكنها لا تعرف ما تريده حقّاً عبر برامج ثورية.

٥. هناك ميزة أخرى للانتفاضات الشعبية وهي أن معظم المعارضة عموماً لم تكن مؤطّرة بتنظيمات حزبية فاعلة.

انعكاسات هذه الأوضاع على مسيحيي المشرق العربي

١. الانعكاس الأول هو خوف بعض المسيحيين من أن تكون الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع حصراً في شؤون الدولة.

٢. الانعكاس الثاني هو ازدياد ظاهرة هجرة المسيحيين إلى الغرب، ويأتي هذا الأمر في حال تهميش دور المسيحيين، وتقليل إشراكهم في الحياة العامة في أوطانهم.

٣. الانعكاس الثالث هو حصول ضغوطات على الحرية الدينية لدى المسيحيين (طقوس وأحوال شخصيّة) وحتى على الحريات العامة.

٤. إن مسيحيي المشرق العربي يعانون مخاوف عديدة وكبيرة مما قد تفضي إليه الثورات العربية الراهنة؛ فبسبب انعدام بديل واضح أو حتى مجرّد تصوّر راجح لِما بعد النظام الاستبدادي الذي انتفض الناس للتخلّص منه، يخاف المسيحيون العرب من أن تكون هذه الانتفاضات رافعة لقوى إسلاميّة متطرّفة للوصول إلى السلطة، وإن لهذا القلق ما يبرّره.

وفي جميع الأحوال هناك ظاهرة الهجرة والاستنزاف الديمغرافي الذي يُفرغ المسيحيين من منطقة الشرق الأوسط.

ويعتقد العديد من المثقفين أن إفراغ المسيحيين من المنطقة هو مخطط غربي يهدف إلى القضاء على ثقافة التنوّع والاختلاف في المنطقة، وتكريس نمط من الثقافة الأحادية، ومنع التواصل الحضاري بين دول المشرق العربي التي كان المسيحيون يلعبون دوراً مهمّاً فيه.

والفكرة السائدة لدى النخبة الثقافية ترى أن بقاء المسيحيين في المشرق العربي هو ترسيخ لفكرة الدولة الحديثة والتنوّع الثقافي والتعددية والديمقراطية، ومنع استنزاف الطاقات العلمية والفكرية والثقافية في منطقتنا.

إن الهجرة الواسعة للمسيحيين العرب (إن حصلت) تشكل أحد المخاطر التي تواجهها المنطقة، وذلك بسبب الدور الثقافي الذي يلعبه هؤلاء المسيحيون،

بوصفهم حلقة وصل بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية، واستيعابهم وتفهمّهم لكلتا الثقافتين وفتح إمكانية الحوار بينهما.

ولا يمكن القول إن هذه الصلة ناتجة عن ارتباط ثقافة المسيحيين في المشرق بثقافة الغرب، بل لتأثير هذه الثقافة في رؤية الغرب لهذا الشرق الذي تتسم غالباً بالسلبيّة والنظرة وحيدة الجانب المتمثلة بكونه مصدراً للإرهاب، ومصدراً للمواد الخام والثروة.

لقد مارست الثقافة المسيحية المشرقية على مدى تاريخها تأثيراً متبادلاً بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية الغربية، ولعبت دوراً بين الثقافتين وتفاعلهما معاً رغم الظروف القاسية التي تعرّضت لها بسبب هذا الدور.

مقوّمات استقرار المسيحيين في المنطقة العربية

ماذا يمكن للمسيحيين العرب فعله لكي يضمنوا بقاءهم في أوطانهم وممارسة رسالتهم؟

١. إن المبادئ المسيحية تتناقض والاستبداد العلماني والديني على السواء، وإذا تاق المسيحيون إلى الخلاص من نظام استبدادي فهذا لا يعني أنهم يتوقون إلى نظام استبدادي آخر، لكن المبادئ المسيحية لا تجد نفسها منسجمة إلا مع الدولة الحديثة التي تساوي بين كافة مواطنيها في الحقوق والحريات، وتحترم الحريّات وحقوق الإنسان.

٢. من الضروري أن تشجع الكنائس الهيئات المدنية على نشر ثقافة الحوار والتوعية بضرورة المشاركة الفعّالة في بناء المجتمع، وبالتالي الخروج من الانعزال ومن "الغيتو" ومن التعصب الطائفي والمذهبي.

هذا وإن كانت الانتفاضات العربية تهدف إلى تحقيق الإصلاح السياسي

والاجتماعي والاقتصادي فإن المسيحيين سيكونون حتماً مع هذا الإصلاح.

إنما يجب على أي تغيير أن يتمّ على قاعدة المساواة بين أفراد الجماعة أو الشعب وإلى أي شريحة انتموا، والمساواة تجد ترجمتها في الانتماء والولاء الأول للوطن، أي في المواطنة.

٣. من الضروري أن تعمل الكنائس كل ما في وسعها لإيقاف ظاهرة الهجرة إلى الخارج، وذلك بخلق مشاريع عمل وتسهيل مسألة السكن، مستخدمة لذلك ما تملك من أوقاف.

٤. من المفيد أن تشجع الكنائس مؤمنيها العلمانيين على الانخراط بالشأن العام من خلال الدخول في وظائف القطاع العام، وممارسة السياسة، والالتزام بالقضايا الوطنية والقومية.

٥. إن المسيحيين العرب هم مشاركون فعليّون في الحركات النهضوية والإصلاحية في العالم، وثمة سوابق في التاريخ الحديث لعب فيها المسيحيون العرب الدور الريادي، ومن تلك السوابق:

- الانتفاضة العربية ضد التتريك في نهاية الإمبراطورية العثمانية، وقيادة حركة النهضة العربية الحديثة.
- الانتفاضات العربية ضدّ الاستعمار الأوروبي (لا سيّما الفرنسي والبريطاني).
- الانتفاضات العربية ضدّ الاحتلال الصهيوني.

٦. هذا، وعلى المسيحيين العرب أن يسعوا لإقامة تحالف مع المسلمين، وخاصة المتنّورين، وهم كثر، لوضع عقد اجتماعي إسلامي- مسيحيّ عربيّ، يقيم الدولة الحديثة، ويحترم الحقوق الدينية، ويرسي قواعد المساواة في المواطنة.

٧. مستقبلنا بأيدينا؛ حيث اعتادت المجتمعات الشرقية والعربية أن تضع مصائرها

بأيدي غيرها، ولكن مستقبل المسيحيين المشرقيين بأيديهم، بمعنى أنه من الضروري أن نكفّ عن النظر إلى الآخرين منتظرين النجاة من غيرنا ... لقد حان الوقت أن نرى أنفسنا بعيوننا وليس بعيون الآخرين، وأن نطوّر حضوراً مسيحياً حقيقياً في مجتمعنا ... خلاصنا يأتينا من داخل أنفسنا وليس من غيرنا.

٨. التحدي الداخلي بأن نكون معاً أو لا نكون، وإن التحدي الكبير الذي يواجهنا، والذي يتحكم أيضا بمستقبلنا، هو انقساماتنا، فلا يمكن أن نطور في هذا الشرق حضوراً مسيحياً حقيقياً إلا إذا فكّرنا معاً وصلّينا وعملنا معاً.

بالطبع، لا نقصد من هذه الدعوة إلى تشكيل جبهة ضد أي أحد، بل أن نكون معاً من أجل مجتمعنا، وهنا يتجدد الشعار الذي أصبح موضع تداول: "في الشرق، نكون مسيحيين معاً أو لا نكون".

٩. الحوار مع المسلمين، إذ إن العيش المشترك مع المسلمين هو من إرادة الله علينا وعليهم، ولا نستطيع أن نطوّر حضوراً مسيحياً في الشرق إلا بالتحاور والتواصل مع المسلمين.

١٠. يدعو الفريق العربي للحوار الإسلامي المسيحي إلى "نشر ثقافة قبول الآخر واحترامه، واستخدام كل الوسائل التربوية والإعلامية والثقافية المتاحة، وعدم الاكتفاء بالخطابات العاطفية والمجاملات من فوق، بل إن الأمر بات يتطلب العمل من تحت، صعوداً إلى أعلى الدرج، على أن يترافق ذلك مع تحديث الخطاب الديني وتطويره بحيث يساهم في إزالة الأحكام والتصورات المسبقة عن الآخر".

وأخيراً، إن من المهمّ الآن وقف هجرة المسيحيين العرب، وبناء الدولة الحديثة على قاعدة المواطنية، وألا نبقى متفرجين على ما يحدث وغير معنيين فيه، بل أن نطلب من الله بأن يجعلنا نحسن قراءة الأزمنة.